سرّ الله كما للأطفال
(مت ١١ : ٢٥-٣٠)

الأب نجيب إبراهيم

المقدّمة

يتفق المفسّرون على وحدة الفصلين الحادي عشر والثاني عشر من متّى. بعد خطبة يسوع ووصاياه للاثني عشر في الفصل العاشر، يروي متّى بعض أعمال يسوع وأقواله. ولكن ما يميّز هذا القسم من الإنجيل هو التساؤل حول يسوع؛ فالسؤال هو أسلوب بلاغيّ يسير بالقارئ إلى فهم الحقيقة. في البدء يسأل يوحنّا المعمدان: «أأنت الآتي، أم آخر ننتظر؟» (١١ : ٣). والسؤال الآخر تطرحه الجموع بعد شفاء رجل ممسوس أعمى أخرس: «أتُرى هذا ابنَ داود؟» (١٢ : ٢٣)؛ فالسؤالان يتقابلان في بداية رواية تالية، ممّا ينوّه بقسمين متوازيَين في هذه الوحدة، يكون السؤال فيها عن هويّة يسوع هو العنوان الرئيسيّ. وممّا يساهم في إظهار توازي القسمين هو جواب يسوع، من جهة: «إذهبوا فأخبروا يوحنّا بما تسمعون وترون: العميان يبصرون والعرج يمشون مشيًا سويًّا، البرص يبرأون والصمّ يسمعون، والموتى يقومون والفقراء يبشَّرون، وطوبى لمن لا أكون له حجرَ عثرة» (١١ : ٤-٦)، ومن جهة أخرى، عمل يسوع: «وأتوه برجل ممسوس أعمى أخرس، فشفاه حتّى إنّ الأخرس تكلّم وأبصر» (١٢ : ٢٢).

تدفع هذه التوازيات إلى تحديد هذين الفصلين كوحدة مؤلّفة من ثلاثة أقسام:

- قسم مركزيّ فيه استشهاد طويل من العهد القديم: ١٢ : ١٥-٢١.

– قسم أوّل يبدأ بتساؤل يوحنّا المعمدان: ١١ : ١–١٢ : ١٤.

– قسم ثالث يبدأ بتساؤل الجموع: ١٢ : ٢٢–٥٠.

غالبًا ما يُظهر التحليل البلاغيّ البيبليّ مركزيّة النصّ في الاستشهاد من العهد القديم. كما يبيّن روبرتو دي باولو[١] الكثير من التوازيات بين القسم الأوّل والثالث، ممّا يكشف عن نصٍّ مركزيّ فيه يعلن متّى أنّ يسوع يحقّق نبوءة أشعيا في عبد الربّ. من الجدير بالذكر أنّ متّى يضع في الفصل الثالث عشر تعليم يسوع بالأمثال، ممّا يضع حدًّا ظاهرًا للوحدة السابقة.

وفي هذه الوحدة الكبيرة يأتي كلام يسوع في الكشف للصغار بشكل متوازٍ مع ما سبق وقاله معنّفًا مدن البحيرة.

– يسوع يعنّف مدن البحيرة لأنّها رفضت أعمال ابن الله (١١ : ٢٠–٢٤).

– يسوع يحمد الآب لأنّ الصغار قبلوا الوحي (١١ : ٢٥–٣٠).

وفي هذا النصّ الأخير نميّز ثلاثة أقسام:

١ – يسوع يحمد الآب (١١ : ٢٥–٢٦)

٢– قول في الوحي (١١ : ٢٧)

٣– يسوع يدعو النّاس إليه (١١ : ٢٨–٣٠).

القسم الأوّل: يسوع يحمد الآب (مت ١١ : ٢٥–٢٦)

– مت ١١ : ٢٥: «في ذلك الوقت تابع يسوع كلامه فقال: أحمدك يا أبتِ، ربّ السّماء والأرض، على أنّك أخفيت هذه الأشياء على الحكماء والأذكياء، وكشفتها للصّغار».

إنّ العبارة اليونانيّة ἀποκριθεὶς εἰπεῖν تنقل العبريّة[٢] للتعبير عن متابعة

(١) Cf R. Di PAOLO, *Il servo di Dio porta il diritto alle nazioni. Analisi retorica di Matteo 11-12* (Tesi Gregoriana. Serie Teologia 128), Roma 2005.

(٢) Cf. A. KRETZER, ἀποκρίνομαι, *DENT*, 354-355.

الكلام أو بداية خطبة جديدة. على الأرجح يريد متّى ربط كلام يسوع التالي بما ورد في النصّ السابق حول تعنّيف مدن البحيرة (١١ : ٢٠–٢٤).

«أحمدك يا أبتِ»: يرد الفعل ἐξομολογέω ١٠ مرّات فقط في العهد الجديد، ومرّتين في متّى[٣]. في ٣ : ٦ لدينا معنى الاعتراف بالخطايا، وفي ١١: ٢٥ معنى الحمد لله. والصيغة في كلام يسوع : «أحمدك على أنّك»، تنقل ما يرد في المزامير حيث يرفع المرنّم الحمد لله من أجل أعماله الخلاصيّة (مز ٨٦: ١٢–١٣؛ ١١٨ : ٢١؛ ١٣٨ : ١–٢؛ رج سي ٥١ : ١–٢). في الترجمة السبعينيّة يرد الفعل دائمًا في صيغة المستقبل، بينما يستعمل يسوع الفعل في صيغة الحاضر: يسوع يثابر في حمد الآب[٤].

في فعل الحمد لله يتحقّق الاعتراف العلنيّ بقدرة الله في عمل الخلاص. إنّ قرار الله الكشف عن ذاته في عمل يسوع للصّغار بنوع خاصّ يحمل على الصلاة والشكر. يرفع يسوع صلاة الحمد إلى الآب كاشفًا في الوقت نفسه عن تعليم يفيد السّامعين.

يرفع يسوع صلاة الحمد إلى الآب، ربّ السّماء والأرض؛ فالله هو الخالق الّذي يحفظ الكون بعنايته. يجمع يسوع بين سيادة الله الخالق ومحبّته الأبويّة، إذ إنّ معنى العبارة الآراميّة «أبّا» هو «أيّها الآب الحبيب»[٥]. في النصّ اليونانيّ ترد عبارة «آب» بالمنادى ولا يليها ضمير. ولكن من المفضّل ترجمة المنادى: يا أبتِ، تبعًا، من جهة، للمعنى الآراميّ حيث «أبّا» الآراميّة تنقل عبارة «يا أبتِ»، حتّى في النصوص العبريّة، ومن جهة أخرى، وُجب الأخذ بهذا المعنى نسبة إلى سياق النصّ (رج ١١ : ٢٧) وتعليم إنجيل متّى؛ فبعد الإنجيل الرابع حيث ترد عبارة «پاتر» (أب) ١٣٦ مرّة، يأتي إنجيل متّى الّذي يكتب كلمة

(٣) Cf. O. HOFIUS, ἐξομολογέω, *DENT*, 1258-1260.

(٤) Cf. J. GNILKA, *Il vangelo di Matteo. Parte prima*, Brescia 1990 (original allemand 1986), 631-632; D. A. HAGNER, *Matthew 1-13* (WBC 33 A), Dallas-Tex 1993, 319 -325.

(٥) O. MICHEL, πατήρ, *DENT*, 850-851; H.W. Kuhn, ἀββα, *DENT*, 1-3.

«أب» ٦٣ مرّة. كما تجدر الإشارة إلى تعليم يسوع الّذي يتكلّم عن الله قائلاً: «أبي»: «لَيسَ مَن يَقولُ لي يا ربّ، يا ربّ يَدخُلُ مَلكوتَ السَّماوات، بل مَن يَعمَلُ بِمَشيئَةِ أَبي الَّذي في السَّماوات» (٧ : ٢١؛ رج ١٠ : ٣٢–٣٣؛ ١٢ : ٥٠؛ ١٥ : ١٣؛ ١٦ : ١٧؛ ١٨ : ١٠ و١٩ و٣٥؛ ٢٠ : ٢٣؛ ٢٥ : ٣٤؛ ٢٦ : ٢٩ و٣٩ و٤٢ و٥٣). إنّ صلاة يسوع وتعليمه يكشفان عن وجه الله الآب، فأظهر العهد الجديد هذا التعليم، إذ ينسب إلى الله لقب الآب ٢٥٠ مرّة.

تجمع صلاة الحمد بين الجديد والقديم على قول يسوع نفسه بعد تعليمه بالأمثال في مت ١٣ : ٥٢، ذلك أنّ عبارة «ربّ السّماء والأرض» تتواصل مع العهد القديم (طوبيا ٧ : ١٧ في السبعينيّة؛ رج أع ١٧ : ٢٤)، ومع تعابير الصلاة في الأدب الربّينيّ حيث نجد عبارة «سيّد العالم» (رَبُونُو شِلْ عُولَم)[٦]. ولكنّ يسوع يرفع الصلاة أوّلاً إلى الآب، مشدّدًا بذلك على ملء الوحي في تدبير العهد الجديد. هذا ما يميّز صلاة يسوع.

ما يدفع يسوع إلى حمد الآب وتمجيده هو الإخفاء والكشف عن هذه الأشياء. يتوقّع المرء الكلام عن دور الخلائق في تمجيد الله بعد الاعتراف بسيادة الله عليها، ولكنّ يسوع ينتقل إلى دور الآب في الكشف عن ذاته. فالخالق يعرف ما في قلب الإنسان، على ما جاء في الأدب الرؤيويّ: «إنّك ممّجد، أيّها الملك والرّبّ، إنّك عظيم وقدير وسيّد كلّ الخلائق السّماويّة... لا تبتعد الحكمة عن عرشك، ولا تغيب عن وجهك. أنت تعرف وتسمع كلّ شيء» (أخنوخ الأثيوبيّ ٨٤ : ٢–٣).

يؤكّد هولتز[٧] أنّ الفعل ἀποκαλύπτω، «كشف»، يرد في المصدر Q في نصوص مترابطة: مت ١٠ : ٢٦ و١١ : ٢٥–٢٧. في الأوّل يشدّد يسوع ثقة التلاميذ في التبشير: «لا تخافوهم إذًا! فما من مستور إلاّ سيُكشف، ولا من مكتوم إلاّ سيُعلم»؛ وفي الثاني يمنحهم السلطة على القيام برسالة التبشير، ذلك أنّ الآب كشف هذه الأشياء للصغار.

(٦) Cf. GNILKA, *Matteo*, 632; Billerbeck, I, 607.

(٧) Cf. T. HOLTZ, ἀποκαλύπτω, *DENT*, 346-351.

يعبّر يسوع عن مضمون الوحي بعبارة «هذه الأشياء»، وهي أقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح، ولا يمكن فهم المعنى إلاّ من خلال سياق النصّ. بالنسبة إلى هاجنر، يدلّ يسوع على مجمل أعماله وتعليمه في الجليل إذ فيه يظهر ملكوت الله[٨]. لا بدّ من القبول بهذا التفسير، ولكن من البديهيّ الأخذ بعين الاعتبار ما ورد في النصّ، على ما جاء في تفسير جنيلكا: يسوع هو الابن الذي يكشف عن الآب. كما باستطاعتنا البحث عن مضمون «هذه الأشياء» في أسرار الملكوت: «أُعطيتم أنتم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات، وأمّا أولئك فلم يُعطوا ذلك» (مت ١٣ : ١١). على أنّ معرفة أسرار ملكوت السموات ترتبط بالتأكيد بفهم سرّ يسوع وقبوله. هذا ما يجعل الاختلاف بين هذا النصّ والادب الرؤيويّ كبيرًا، إذ إنّ الكشف عن الأمور ومعرفتها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بشخص يسوع، بأقواله وأعماله، لا بالشريعة ولا بالأحداث الأخيرة الموعودة.

كما أنّ التعارض بين من هم في الداخل ومن هم في الخارج يبيّن بدوره الاختلاف بين الإنجيل والأدب الرؤيويّ اليهوديّ وقمران؛ ففي أخنوخ الأوّل ٦٢، الأكابر وأصحاب الأرض يتعارضون مع القدّيسين والأبرار. في قمران (تفسير حبقوق ٥) نرى، من جهة، الأشرار والكفّار ورجل الكذب، ومن جهة أخرى، معلّم البرّ وأتباعه. أمّا في الإنجيل فالتعارض هو بين الحكماء والأذكياء، من جهة، والصغار، من جهة أخرى. في العهد القديم، في الأسفار الحكميّة بالتحديد، غالبًا ما ترد عبارتَا "حكيم" و"ذكيّ" (σοφός / συνετός) للدلالة على المثال الّذي يجب الوصول إليه. هكذا هو الأمر في قمران أيضًا حيث من الأهمّيّة بمكان التوصّل إلى فهم الكتاب المقدّس. أمّا يسوع فيقول إنّ الأذكياء لا يفهمون الوحي الّذي يكشف عنه، بينما الصغار (νηπίοις) يفهمونه. الصغار هم الّذين لا يعرفون كلّ متطلبات الشريعة، أي أولئك الّذين ينتمون إلى عامّة الشعب، والّذين كان الفرّيسيّون يدعونهم باحتقار "شعب الأرض" (عَمّي هآرِتْص). من الواضح أنّ متّى يبيّن هنا التناقض بين معلمّي الشريعة والفرّيسيّين

(٨) D. A. HAGNER, *Matthew 1-13*, 319.

وبين تلاميذه، كما سيبيّن ذلك في الفصل الثالث والعشرين، حيث يعنّف يسوع الكتبة والفرّيسيّين. ولكن حدث سابقًا ما يُظهر حقيقة هذا الأمر. عندما دخل يسوع إلى أورشليم وقام بطرد الباعة من الهيكل، يقول متّى: "فلمّا رأى عظماء الكهنة والكتبة ما أتى به من الأمور العجيبة، ورأوا الأطفال يهتفون في الهيكل: هوشعنا لابن داود، استاؤوا فقالوا له: أتسمع ما يقول هؤلاء؟ فقال لهم يسوع: نعم، أما قرأتم قط: على ألسنة الصغار والرضّع أعددت لنفسك تسبيحا؟" (٢١ : ١٥–١٦). تجدر الإشارة إلى أنّ كلمة صغير νηπίοις ترد فقط مرّتين في مت (١١ : ٢٥ و٢١ : ١٦). في المرّة الأولى كلام عن الآب الّذي يكشف الإنجيل للصغار، وفي الثانية حدث يبيّن حقيقة هذا الأمر؛ فالصغار يهتفون هوشعنا لابن داود، وهو يسوع المزمع أن يُسلم للصلب. لذلك نتبيّن هنا هدف متّى السرديّ، إذ إنّ قول يسوع في الكشف للصغار يقارب حكمة الصليب في حدث دخوله إلى أورشليم (رج ١ كو ١ : ١٩)، ويحاكي رضى الآب.

مت ١١ : ٢٦: «نَعَم يا أَبَتِ، هذا ما كانَ رِضاك» («نعم يا أبتِ، إذ هكذا صار الرضى أمامك»).

يُظهر يسوع مشدّدًا على أنّ ما قاله سابقًا يتّفق مع إرادة الآب، معدًّا بذلك نتيجة الكشف للصغار. ترد كلمة رضى (εὐδοκία) هنا فقط في إنجيل متّى. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ الفعل (εὐδοκέω) يرد ٣ مرّات في متّى. بعدما اعتمد يسوع وخرج من الماء انفتحت السّماوات، وهبط الروح، وصوت من السّماوات قال: "هذا هو ابني الحبيب الّذي عنه رضيت" (٣ : ١٧). وفي سياق كلامه عن أعمال يسوع يقول متّى إنّ اتّباع الجموع له لأنّه كان يشفي كثيرًا من النّاس هو تحقيقٌ لما جاء على لسان النبيّ أشعيا: "هوذا عبدي الّذي اخترته، حبيبي الّذي عنه رضيت" (١٢ : ١٧–١٨؛ رج أش ٤٢ : ١–٤). كذلك الأمر في حدث التجلّي إذ يقول الله على مسمع التلاميذ الثلاثة، بطرس ويعقوب ويوحنّا: "هذا هو ابني الحبيب الّذي عنه رضيت، فله اسمعوا" (١٧: ٥). من الواضح أنّ موضوع رضى الآب في متّى يرتبط ارتباطًا قويًّا بشخص

يسوع. من يرضي الآب هو يسوع، الابن الحبيب، لذلك لا يكون بابٌ لمعرفة الآب بدونه.

القسم الثاني: قولٌ في الوحي (مت ١١ : ٢٧)

«قد سَلَّمَني أَبي كُلَّ شَيء، فما مِن أَحَد يَعرِفُ الابنَ إِلاَّ الآب، ولا مِن أَحدٍ يَعرِفُ الآبَ إِلاَّ الابن ومَن شاءَ الابنُ أَن يَكشِفَه لَه».

يبيّن يسوع كيف يتمّ الكشف عن الله؛ فالجملة الأخيرة من الآية هي النقطة الأهمّ، إذ وحده الابن يفتح باب معرفة الآب، فيكون بذلك انتقال من عمل الآب إلى عمل الابن في الوحي. يسوع يعرف هو أيضًا الصغار ويريد منحهم نعمة معرفة الله.

ما يلفت النظر في هذه الآية هو كلمة «الابن» المستعملة بشكل مطلق بدون أيّ إضافة، وهو ما لا نجده في الأناجيل الإزائيّة سوى هنا وما يوازيه في لو ١٠: ٢٢، وفي مت ٢٤ : ٣٦ وما يقابله في مر ١٣ : ٣٢، بينما ترد غالبًا في إنجيل يوحنّا. لا بدّ أن يعبّر الاسم المعرّف «الابن» (ὁ υἱὸς) عن اللاهوت المسيحانيّ السامي لدى متّى، في أنّ يسوع هو حقًّا ابن الله، كما في ٣ : ١٧ و١٤ : ٣٣ و١٦: ١٦ و١٧: ٥ و٢٧ : ٥٤.

يبدأ يسوع بتقديم ذاته وهو الّذي سلّمه الآب كلّ شيء. نذكر ما سوف يقوله القائم من بين الأموات إلى تلاميذه الأحد عشر: «إنّي أُوليتُ كلّ سلطان في السّماء والأرض» (٢٨ : ١٨). على أنّ الفعل المستعمل في ١١ : ٢٧ (παρεδόθη) لا يعني فقط فعل العطاء كما في ٢٨ : ١٨ (ἐδόθη)، إذ لا بدّ "للتسليم" أن يذكّر القارئ بنهج نقل التقليد لدى الربّينيّين وله عباراته الخاصّة: يتسلّم المرء التقليد من سابقيه وينقله إلى الآخرين، ولكنّ الآب سلّم الابن كلّ شيء، بينما يُعطى القائم من الموت كلّ سلطان في السّماء والأرض، فيرسل تلاميذه للتعليم. أمّا عبارة "كلّ شيء" فتجد معناها المباشر بما يلي: المعرفة بين الآب والابن وقدرة الابن على كشف الآب لمن يريد أن يكشفه له. يسوع هو إذًا الوسيط الوحيد لمعرفة الله.

أمّا العلاقة بين الله ويسوع فهي حقًّا فريدة، إذ وحده الآب يعرف الابن ووحده الابن يعرف الآب؛ فالفعل المركّب المستعمل هنا (ἐπιγινώσκω) يدلّ على زيادة في المعنى: عرف بدقّة وبشكل شامل وأيضًا اعترف بالشيء وقبله وقدّره. ينوّه الإنجيل بالعلاقة الحميمة بين الآب والابن، مستعيدًا ما قاله يسوع سابقًا في حمد الله: «أحمدك يا أبتِ»؛ فالإعلان عن أنّ الآب وحده يعرف الابن يعبّر عن لاهوت المسيح في الإنجيل: إنّ هويّة يسوع الحقيقيّة في علاقته مع الآب تبقى مخفيّة بالنسبة إلى النّاس، بينما وحده الآب يعرفها. سوف يقول يسوع لبطرس الّذي اعترف بأنّه المسيح ابن الله الحيّ: «ليس اللحم والدّم كشفَا لك هذا، بل أبي الّذي في السّماوات» (١٦ : ١٧).

وفي المقابل، وحده الابن يعرف الآب معرفة شاملة. يظهر هذا الأمر في رسالة يسوع العلنيّة وبشارة الملكوت (مت ٤ : ٢٣). لذلك يكون أنّ الّذين يعرفون الآب يقبلون البشارة التي يعلنها يسوع وتلاميذه. ومن يرفض يسوع وتعليمه تكون معرفته للآب ناقصة. يتّفق المفسّرون على أنّ موضوع المعرفة المشتركة بين الآب والابن يرجع إلى صورة الحكمة في العهد القديم؛ فالله يعرف الحكمة (سي ١ : ٦–٩)، والحكمة بدورها تعرف الله (حك ٨ : ٤؛ ٩: ٩–١١)، وتمنح النّاس هذه المعرفة (حك ٩ : ١٧–١٨).

يسوع يكشف الآب لمن يشاء. في الجملة الأخيرة من الآية قمّة الإعلان، إذ يتساوى يسوع مع الآب في الكشف عن الوحي. في صلاته قال يسوع أنّ الآب يخفي الأشياء على الحكماء والأذكياء ويكشفها للصّغار. ويسوع بدوره يكشف الآب لمن يشاء. إنّه امتياز يضع يسوع إلى جانب الآب وذلك خلافًا لكلّ البشر بما فيهم معلّم البرّ في قمران (IQH 4 : 27-29) الّذي يبقى بمستوى البشر[٩].

بعد استعراض آراء المفسّرين، يشدّد جنيلكا على أمرين: الأوّل يخصّ تسمية الله «أبي» من قبل يسوع واستعمال فعل المضارع «يعرف» مرّتين

(٩) Cf. D. A. HAGNER, *Matthew 1-13*, 321.

(ἐπιγινώσκει)، ممّا يدفع القارئ إلى البحث عن المعنى في إطار الخبرة المسيحيّة. إنّ سرّ الابن يقوم في أنّ الله يكشف عن ذاته في الابن: الله الآب. ويسوع هو إذًا الابن. لذلك يرفض جنيلكا الآراء التي ترى في هذه الآية كريستولوجيّا ابن الانسان أو كريستولوجيّا الحكمة، إلخ. كما تجدر الاشارة إلى تصريف الفعل في المضارع. لذلك لا يمكن تفسيره بمعنى الاختيار، إذ في هذه الحالة كان يجب أن يكون الفعل في الماضي؛ فالمعرفة المتبادلة بين الآب والابن هي معرفة دائمة ومحبّة أزليّة، تنطلق من الآب وتصبو إلى الوصول إلى النّاس بواسطة الابن.

القسم الثالث: يسوع يدعو النّاس إليه (مت ١١ : ٢٨–٣٠)

١١ : ٢٨ : «تعالوا إليّ جميعًا أيّها المرهقون المثقلون، وأنا أريحكم».

كان يسوع قد دعا التلاميذ الأوّلين قائلاً: «تعالوا ورائي، داعيًا إيّاهم إلى اتّباعه». أمّا هنا فيقول: «تعالوا إليّ»، وهذه العبارة فريدة في كلّ العهد الجديد. وفي خلاف الكشف إلى البعض في الآية السابقة، يتوجّه يسوع هنا إلى الجميع، بمن فيهم شعب العهد القديم. ولا تخفى على القارئ أوجه الشبه بين دعوة يسوع ودعوة السيّدة الحكمة في العهد القديم:

«إقتربوا منّي أيّها الغير المتأدّبين وأقيموا في منزل التأديب. لماذا تعترفون بعوزكم لها ونفوسكم ظامئة جدًّا؟ فتحت فمي وتكلّمت: إشتروها بلا فضّة، أخضعوا رقابكم للنير، ولتتخذ نفوسكم التأديب فإنّه قريب. أنظروا بأعينكم كيف تعبت قليلاً فوجدت لنفسي راحة كثيرة. شاركوا في التأديب بمقدار كثير من الفضة فتكتسبوا بفضلها ذهبًا كثيرًا. لتبتهج نفوسكم برحمة الربّ ولا تخجلوا من تسبيحه. إعملوا عملكم قبل الأوان فيؤتيكم ثوابكم في أوانه» (سي ٥١ : ٢٣–٣٠).

وكان يسوع قد قال سابقًا: «إلاّ أنّ الحكمة زكّتها أعمالُها» (١١ : ١٨). ينوّه متّى هنا بأهمّيّة لاهوت الحكمة لفهم سرّ المسيح.

يقدّم يسوع ذاته لأولئك الّذين يجهدون في العمل والّذين تثقلهم الأحمال. هؤلاء ليسوا تلاميذ يسوع، أي الّذين لم يصبحوا بعد من التلاميذ. نفهم من سياق النصّ، من آ ٢٩، أنّ هؤلاء هم الّذين يرزحون تحت نير ثقيل، وليس المقصود هنا نير الشريعة بحدّ ذاتها، بل التفسير الشّفهيّ لدى الفرّيسيّين، وهذا ما نتبيّنه في إنجيل متّى، خاصّة في الفصل الثالث والعشرين منه، حيث يقول يسوع في الكتبة والفرّيسيّين إنّهم «يحزمون أحمالاً ثقيلة ويُلقونها على أكتاف النّاس، ولكنّهم يأبَون تحريكَها بطرف الإصبع» (٢٣ : ٤). كان الفرّيسيّون يتكلّمون عن ٦١٣ وصيّة، عدا عن تفاسير «الهلخُوت». أمّا يسوع فيعد المثقلين بهذه الأحمال بالراحة إذا ما جاؤوا إليه، ممّا يجعل يسوع مثل الرّبّ الّذي قال لموسى في خر ٣٣ : ١٤ : «وجهي يسير أمامك وأُريحُك». تجدر الإشارة إلى أنّ يسوع يدعو أوّلاً النّاس إليه ومن ثمّ إلى حمل نير التتلمذ له. وكإله، هو الّذي يعطي الراحة لهم. لا يحلّ يسوع مكان السيّدة الحكمة وحسب، بل مكان يهوه في العهد القديم. يقول يسوع: «وأنا أريحكم»، لا بل: «وأنا سوف أريحكم»، إذ إنّ الفعل في المستقبل (ἀναπαύσω)، ممّا يدلّ على منحهم الراحة الكاملة والأخيرة الموعودة؛ فالراحة التي يعطيها يسوع اليوم لها بُعد أخيريّ: ينالها الإنسان اليوم ويتذوّقها، ولكنّه لا يعرف كمالها إلاّ في الحياة الأبديّة. وإذا ما تتبّعنا عبارة "تعالوا" في متّى لوجدناها على لسان الملك في الدينونة: "تعالوا، يا من باركهم أبي، فرثوا الملكوت المعدّ لكم منذ إنشاء العالم" (٢٥ : ٣٤؛ رج عب ٤ : ١–١١). أمّا اليوم فالإنسان مدعوّ إلى الاقتداء بيسوع فيحمل نيره. بروح الوداعة دخل يسوع في مسيرة آلامه (٢١: ٥).

١١ : ٢٩ : «إحملوا نيري عليكم وتتلمذوا لي فإنّي وديع متواضع القلب، تجدوا الراحة لنفوسكم».

تجد الآية السابقة معنى أكثر دقّة هنا، إذ إنّ دعوة يسوع للمجيء إليه تعني التتلمذ له واتّباعه والتعلّم منه. من المتفّق عليه أنّ كلمة «نير» تدلّ على

الشريعة[١٠]، كان ذلك في الأدب اليهوديّ الربّانيّ (أبوت ٣ : ٥؛ براكا ٢ : ٢) أو في العهد الجديد (أع ١٥ : ١٠؛ غل ٥ : ١). يطلب يسوع من النّاس أن يقبلوا تعليمه تفسيرًا نهائيًّا للشريعة، كما ورد في عظة الجبل (٥ : ١٧–٢٠).

يتابع يسوع قائلاً: «تتلمذوا لي» (تعلّموا منّي). لطالما دعا الأنبياء في العهد القديم إلى الطّاعة للشريعة، كما هو الحال بالنسبة إلى السيّدة الحكمة: «من سمع لي فلا يخزى، ومن عمل بإرشادي فلا يخطأ. هذه كلّها هي سفر عهد الإله العليّ والشريعة التي أوصانا بها موسى ميراثًا لجماعات يعقوب» (سي ٢٤ : ٢٢–٢٣).

تأتي خاتمة الإنجيل بالمعنى الكامل لهذه الآية. يدعو القائم من بين الأموات تلاميذه إلى القيام بتلمذة جميع الأمم معلّمين إيّاهم أن يحفظوا كلّ ما أوصاهم به (٢٨ : ١٩–٢٠). وفي كلاّ الآيتين تنويه بالبعد الشخصيّ في التلمذة ليسوع؛ فالتلمذة لا تُدخل الإنسان في معرفة وصايا وعقائد وحسب، بل تمنحه نعمة الدخول في علاقة شخصيّة معه ومن خلاله مع الآب.

ويتابع يسوع كلامه مبيّنًا سبب دعوته للنّاس إلى التتلمذ له: «فإنّي وديعٌ متواضع القلب». ترد كلمة «وديع» (πραΰς) كصفة غير مباشرة ليسوع في رواية دخوله إلى أورشليم، حيث يستشهد متّى بـ زك ٩ : ٩: "قولوا لبنت صهيون: هوذا ملكك آتيًا إليك، وديعًا راكبًا على أتان وجحش ابن دابّة" (مت ٢١ : ٥). ومن الجدير بالذكر ما يقوله بولس في الرسالة الثانية إلى أهل قورنتس: "أنا بولس أناشدكم بوداعة المسيح وحلمه" (١٠ : ١)، معبّرًا بذلك عن إيمان الكنيسة الأولى بوداعة المسيح، خاصّة في سيرة الآلام، وقصد التعلّم منه. ولكن لا نجد هذه الصفة ليسوع إلا في هذه النصوص. كذلك الأمر بالنسبة إلى عبارة "متواضع" (ταπεινὸς)، فهي صفة ليسوع فقط في هذه الآية. وبما أنّ الكلام هنا على الخلاف بين نير الشريعة كما يفسّرها الفرّيسيّون ونير يسوع الّذي

(١٠) تدلّ كلمة «نير» على معانٍ مختلفة: نير ملكوت السّماوات، الشّريعة، الوصايا، التوبة، الحياة الإنسانيّة، الحكم الزمنيّ. رج Billerbeck I, 608- 610.

يمنح الراحة، يظهر التناقض بين أسلوب يسوع وأسلوب الفرّيسيّين في الحياة والعمل؛ فهؤلاء يعملون كلّ أعمالهم لينظر النّاس إليهم: "يُعَرِّضونَ عَصائبَهم ويُطِّولونَ أَهدابَهم ويُحِبُّونَ المَقعَدَ الأَوَّلَ في المآدِب، وصُدورَ المَجالِسِ في المَجامع، وتَلَقِّيَ التَّحِيَّاتِ في السَّاحات، وأَن يَدعُوَهُمُ النَّاسُ "رابي" (مت ٢٣: ٥–٧). نهج الفرّيسيّين هذا يحول دون اعتبارهم مفسّرين أصيلين للشريعة. أمّا يسوع فيأتي بأسلوب عبد الرّبّ، وديعًا ومتواضعًا، ممّا يجعله جديرًا بالثقة في الكشف عن الله. من الجدير بالذكر أنّ مركز سياق النصّ الّذي نحاول فهمه وتفسيره هو ما يلي في الفصل الثاني عشر، وفيه يضع متّى أطول استشهاد من العهد القديم في إنجيله، ألا وهو نشيد عبد الرّبّ (أش ٤٢ : ١–٤).

وفي نهاية الأمر لا يلقي يسوع على أكتاف النّاس أحمالاً ثقيلة يرزحون تحتها، بل يقول للذين يتتلمذون له: «تجدوا الراحة لنفوسكم». نجد لهذه الآية ما يقابلها في إرميا: «هكذا قالَ الرَّبّ: قِفوا في الطُّرُقِ وانظُروا واسأَلوا عنِ المَسالِكِ القَويمة ما هو الطَّريقُ الصَّالِحُ وسيروا فيه، فتَجِدوا راحةً لِنُفوسِكم» (٦ : ١٦). ما يعد به الرّبّ في نبوءة إرميا هو ما يعد به يسوع تلاميذه. سوف يمنحهم الراحة، أي السّلام الّذي هو خلاص تامّ. لذلك سبق يسوع فقال: «طوبى للودعاء فإنّهم يرثون الأرض» (مت ٥ : ٤).

وفي الختام تشديد على طبيعة ما يقدّمه يسوع لأتباعه: «لأنّ نيري لطيف وحمْلي خفيف» (١١ : ٣٠). ترد كلمة «لطيف» فقط هنا في متّى (عن لطف الله، رج لو ٦ : ٣٥؛ رو ٢ : ٢٤؛ و«لطف الرّبّ»، ١ بط ٢ : ٣). تأتي عبارة الحمل الخفيف بشكل متوازٍ مع الأولى، ممّا يساعد على فهم معناها. ترد كلمة «حِمْل» مرّة ثانية وأخيرة في مت ٢٣ : ٤، حيث تدلّ على مجمل الأحكام الشرعيّة في تقليد الفرّيسيّين، وهي كما يقول يسوع «أحمال ثقيلة». أمّا طريقة يسوع في شرح الشريعة فهي نير خفيف. من تبع طريقة الفرّيسيّين سوف يرزح تحت أحمال ثقيلة، بينما من يتبع يسوع فسوف يختبر كم حمْله خفيف. قام الفرّيسيّون بوضع سياجٍ من الأحكام حول الشريعة، يجعل حفظها أمرًا صعبًا

وثقيلاً، بينما يذهب يسوع إلى جوهر الأمور في الشريعة، كما في جوابه على سؤال أحد الفرّيسيّين في الوصيّة الكبرى (٢٢ : ٣٤–٤٠). ولم يكن يسوع بهذا أفضل منهم بالتفسير وحسب، إذ هو المسيح الملك الّذي أظهر ملكوت الله بأعماله وأقواله.

الخاتمة

«أأنت الآتي، أم آخر ننتظر؟». على هذا السؤال المحوريّ يجيب متّى في خبر صلاة يسوع وقوله في الكشف للصّغار. يسوع هو الابن، ابن الله، الّذي يقدّم للملأ أصغريّته دربًا لمعرفة الله ولنيل راحة النفس.

يسوع هو الابن. ترد عبارة «الابن» ثلاث مرّات في هذا النصّ، حيث يتكلّم يسوع على العلاقة الفريدة بين الآب والابن، وهي علاقة معرفة تامّة بحسب مفهوم العهد القديم، أي علاقة اتحاد وشركة كاملة. والكلام عن الابن يدلّ أيضًا على قدرته الإلهيّة في الكشف عن الآب. في هذه العلاقة الفريدة بين الآب والابن تظهر رسالة الابن في الوحي، ممّا يفتح أمام سائر النّاس الباب للدخول في هذه العلاقة.

إنّ فرادة هذا النّص في الكلام على الابن يجعله قريبًا جدًّا من لاهوت الإنجيل الرابع، ممّا دفع المفسّرين إلى القول بأنّه يوحنّاويّ دخيل على إنجيل متّى. ولكن القراءة الدياكرونيّة لا تبدو مقنعة اليوم، خاصّة إذا تابعنا تعليم متّى في ما يخصّ لقب الابن.

يتميّز متّى بأنّه يقدّم كريستولوجيا ابن الله الأكثر وضوحًا بين الأناجيل الإزائيّة[١١]. في متّى نجد العدد الأكبر لهذا اللقب: ٨ في مرقس، ١٠ في لوقا، ١٥ في متّى. متّى يدعو يسوع ابن إبراهيم وابن داود (١ : ١) ليبيّن أنّه يحقّق مواعيد العهد القديم وهو المسيح. بعد الكلام عن الميلاد البتوليّ من مريم يصل إلى لقب ابن الله في نبوءة هوشع، «من مصر دعوت ابني» (٢ : ١٥). يعلن متّى

(١١) Cf F. HAHN, υἱὸς, *DENT*, 1687-1696.

أنّ يسوع هو ابن الله بحسب الطبيعة الإلهيّة، وذلك من خلال رواية المعموديّة والتجارب والآيات التي قام بها (٣ : ١٧؛ ٤ : ٣–٦؛ ٨ : ٢٩؛ ١٤ : ٣٣)، وخاصّة في قول يسوع عن المعرفة المتبادلة بين الآب والابن في ١١ : ٢٧. والمقارنة بين الأناجيل الإزائيّة في ما يخصّ اعتراف بطرس في قيصريّة فيليبس، تبيّن تسطير متّى للبنوّة الإلهيّة: «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (١٦ : ١٦). بالمقارنة مع رواية مرقس، يدلّ متّى بشكل أوضح على الملامح الإلهيّة في التجلّي: «وتجلّى بمرأى منهم، فأشعّ وجهه كالشّمس، وتلألأت ثيابه كالنّور» (١٧ : ٢). يظهر يسوع ابنًا لله خاصّة في رواية الآلام (٢٦ : ٦٣–٥٤؛ ٢٧ : ٥٤ يوازي مر ١٥ : ٣٩؛ ٢٧ : ٤٠ و٤٣). ينتهي الإنجيل بوصيّة المعموديّة باسم الآب والابن والروح القدس (٢٨ : ١٩). تتحقّق مواعيد العهد القديم بحسب رواية متّى تدريجيًّا لتصل إلى القمّة في الإيمان المسيحيّ بأنّ يسوع هو ابن الله.

ينكشف سرّ يسوع في رواية الآلام والقيامة. ولكنّ متّى ينوّه بهذه الحيقية في صلاة يسوع إلى الآب وقوله في الكشف للصّغار، وكأنّي بيسوع يريد أن يجعل من الأصغريّة دربًا للبنوّة الإلهيّة، جاعلاً من نفسه قدوة للوصول إلى الآب. «تتلمذوا لي فإنّي وديع متواضع القلب»، يقول يسوع مبيّنًا ملامح الصغير أمام الآب. وإذا ما تابعنا منطق سرد متّى لوجدنا في نبوءة أشعيا دليلاً آخر للأصغريّة. «هوذا عبدي الّذي اخترته...» (١٢ : ١٨–٢١). من الجدير بالذكر أنّ كلمة عبد (παῖς) المستعملة هنا هي مرادف لكلمة ابن (υἱὸς). على أنّ أصغريّة يسوع تنجلي تمامًا في رواية الآلام: هنا يظهر لقب الابن بوضوح ليجمع بشكل قويّ بين الأصغريّة والبنوّة الإلهيّة. تجدر الإشارة إلى عبارة صغير (νηπίοις) لا تظهر ثانية بعد مت ١١ : ٢٥ إلا في رواية دخول يسوع إلى أورشليم (٢١ : ١٧)، حيث تتفاقم المواجهة مع الخصوم، وهم الحكماء والأذكياء الّذين سوف يحكمون عليه بالموت، بينما يُزهر التسبيح على ألسنة الصّغار والرّضع. وبين دعوة يسوع: "تتلمذوا لي"، ووصيّة القائم من الموت: "إذهبوا وتلمذوا جميع الأمم"، يبقى يسوع المصدر والمثال، هو

الوديع والمتواضع القلب الّذي جعل من الأصغريّة مدرسة الشريعة الجديدة لدخول ملكوت الله.

مراجع

GNILKA J., *Il vangelo di Matteo. Parte prima* (CTNT 1/1), Brescia, 1990 (original allemand 1986).

HAGNER D. A., *Matthew 1-13* (Word Biblical Commentary 33A), Dallas-Texas, 1993.

STRACK H. L. - BILLERBECK P., *Das Evangelium nach Matthäus. Erläutert aus Talmud und Midrasch* (Kommentar zum Neuen Testament aus Talmud und Midrasch 1), München, 1961.

Di PAOLO R., *Il servo di Dio porta il diritto alle nazioni. Analisi retorica di Matteo 11-12* (Tesi Gregoriana. Serie Teologia 128), Roma 2005.

HAHN F., νηπίοις, *DENT*, 1687-1696.

HOFIUS O., ἐξομολογέω, *DENT*, 1258-1260.

HOLTZ T., ἀποκαλύπτω, *DENT*, 346-351.

KRETZER A., ἀποκρίνομαι, *DENT*, 354-355.

KUHN H.W., ἀββα, *DENT*, 1-3.

MICHEL O., πατήρ, *DENT*, 850-851.